موقف المفسرين من "التضمين" في القرآن الكريم

الأستاذ: مكي عبد الكريم

جامعة تلمسان

لقد تعرّض علماء اللغة الأوائل للتضمين الذي هو أسلوب من أساليب التوكيد على رأي بعض العلماء، فقدّموا فيه بحوثا قيّمة، تنبئ عن مكانتهم العلمية، ومعرفتهم بتذوق أساليب اللغة العربية.

ومن بين هؤلاء الأعلام الذين ساهموا في هذا المجال الإمام الطبري الذي ساهم بشكل يجلب الانتباه،وينبئ على فهمه الثاقب،ومعرفته بآراء النحاة المختلفة مبينا آراء الكوفيين والبصريين وموقفهم من "التضمين" بين الإجازة والمنع،ونقده للآراء التي تحتاج إلى تمحيص وتثبيت،وبيان ما اعوجّ منها في توأدة وروية مع تصويب هادئ متزن يقوم على الأدلة الصحيحة والبراهين المحكمة التي تنبئ على عبقريته الفذّة التي ساهمت في مجال إثراء البحث اللغوي،والنحوي،وتنقيح ما يحتاج إلى تنقيح دون التجريح في آراء العلماء السابقين،بل الأخذ بالأحوط منها في هدوء تام مع بيان رأيه في المسألة بالدّليل القاطع،والبرهان الساطع.

ذلكم ما سنتحدّث عنه في هذا البحث للكشف على آراء السابقين في هذا الباب.

وقبل الحديث عن التضمين آثرت أن أتعرّض إلى معناه اللغوي والاصطلاحي،وهل هو قياسي أم سماعي ؟ وهل هو خاص بالفعل فقط أم بحروف المعاني على حد رأي البعض ؟

وقبل الخوض في التضمين لا بأس أن نعرّف معنى التضمين في اللغة.فقد جاء في كتاب:(المعجم الوسيط) أثناء حديثه عن التضمين قائلا:" (التضمين) (عند علماء العربية) على معان منها إيقاع لفظ موقع غيره ومعاملته معاملته لتضمنه معناه واشتماله عليه. (1)

واصطلاحا: هو أن:"تضمن فعلا معنى فعل لإفادة معنى الفعلين،فتعديه أيضا تعديته في بعض المواطن" (2)

ومنه قول الشاعر:

قد قتل الله زيادا عني ❖ (3)

---

1. المعجم الوسيط 544/1
2. العز بن عبد السلام،مجاز القرآن 262
3. البيت للفرزدق وصدر البيت: كيف تراني قالبا مجني ينظر:ديوان جرير

ضمن (قتل) معنى (صرف) لإفادة أنّه صرفه بالقتل دون ما عداه من الأسباب، فأفاد معنى القتل والصرف جميعا . (1)

فلفظ (القتل) يحمل معنيين معا هما: القتل والصرف .

وعلى رأي البعض فهو من باب المجاز؛ لأنّ اللفظ يحمل معنيين،وهو أيضا من أساليب التوكيد على رأي بعض العلماء.

لذا ف: "التضمين أسلوب من أساليب التوكيد ؛ أنّ الفعل فيه يحمل معنى نفسه،ومعنى الفعل المضمن في ذات الوقت، هو اجتماع معنيين في لفظ واحد .(2)

هذا وقد تعرّض العلامة "ابن جني " لتضمين بعض الأفعال لبعضها فقال :"اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر،وكان أحدهما يتعدى بحرف، الآخر بآخر فإنّ العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه، يذانا بأن هذا الفعل في ذلك الآخر، لذلك جيء معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه، ذلك كقول الله عزّ اسمه:(أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ)(3) وأنت لا تقول: رفثت إلى المرأة،وإنّما تقول :رفثت بها، و "معها ".لكنّه لما كان الرفث هنا في

معنى الإفضاء،وكنت تعدي أفضيت بـ [إلى] كقولك :أفضيت إلى المرأة، جئت بـ [إلى] مع الرفث إيذانا وإشعارا أنه بمعناه.(4)

أما الزمخشري : قد اقتدى في هذه الآية المباركة،بأستاذه "ابن جني" وقال :"فإن قلت :لم عدي الرفث بـ [إلى] ؟ قلت : لتضمينه معنى الإفضاء .(5)

بينما سلك القرطبي في الآية الكريمة مسلك "ابن جني "، لكن خالفه في تسمية المصطلح فبدل أن يذكر (التضمين) أبدله، بمصطلح (المحمول) فقال :"وتعدى(الرفث) بـ:[إلى] في قوله تعالى جدّه:(الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ)(6) وأنت لا تقول :رفثت إلى النساء، ولكنه جيء

1.العز بن عبد السلام،مجاز القرآن 262
2.ابن هشام،مغني اللبيب عن كتب الأعاريب517/1
3.سورة البقرة،الآية: 187
4. ابن جني،الخصائص ص: 2/308
5.الزّمخشري، الكشاف338/1
6.سورة البقرة،الآية: 187

محمولا على الإفضاء ؛ الذي يراد به الملابسة في مثل قوله تعالى:(وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ) (1) ومن هذا المعنى:(وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ) (2)

وأثناء تعقيبه على هذه الآية قال:" إن قيل :لم وصلت (خلوا) بـ: [إلى] وعرفها أن توصل بـ: [الباء] ؟

قيل له : (خلوا) هنا بمعنى :ذهبوا وانصرفوا.

وبيّن بعض آراء علماء اللغة حيث ضمّن الحرف :[إلى] بمعنى:[مع] لكن فيه ضعف.

والبعض الآخر بمعنى:[الباء] لكن هذا الرأي الأخير يأباه الخليل و سيبويه.(3)

لكن (ابن كثير) يفضل التضمين ويدلي برأيه في هذه الآية، قائلا:"ضمن (خلوا) معنى انصرفوا لتعديته بـ: [إلى] ليدلّ على الفعل المضمر والفعل الملفوظ به.

ومنهم من قال : [إلى] هنا بمعنى:[مع].

والأول أحسن وعليه كلام (ابن جرير). (4)

لكن يبدو لي أنّ موضوع "التضمين "لم يكن إشكالا طارئا فقد تعرّض له الأوائل قبل العلامة "ابن جني" دون الإشارة للفظ (التضمين). وخير مرجع يعول عليه في هذا، هو تفسير الطبري، فقد أشار إلى ذلك، دون أن يذكر لفظ (التضمين) ففي قول الله عزّ وجلّ:(وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) (5) فقال: فإن قال لنا قائل:أرأيت قوله تعالى:(وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ)(6) فكيف قيل:(خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ)(7)

1.سورة النساء،الآية: 21
2.سورة البقرة الآية 14
3.القرطبي، 249/2
4. ابن كثير 18/1
5.سورة البقرة، الآية 14
6.نفس السورة،والآية
7.نفس السورة والآية

ولم يقل: "خلوا بشياطينهم " فقد علمت أنّ الجاري بين الناس في كلامهم :"خلوت بفلان" أكثر وأفشى من "خلوت إلى فلان. "ومن قولك :إنّ القرآن أفصح البيان، قيل:قد اختلف في ذلك أهل العلم بلغة العرب، فكان بعض نحوي البصرة، يقول:يقال: خلوت إلى فلان، إذا أريد به خلوت إليه في حاجة خاصة، لا يحتمل إذا قيل كذلك إلاّ الخلاء إليه في قضاء الحاجة. فأما إذا قيل:

خلوت به احتمل معنيين :

أحدهما: الخلاء به في الحاجة .

والآخر: في السخرية به.

فعلى هذا القول:(وإذا خلوا إلى شياطينهم.) لاشكّ أفصح منه لو قيل:(وإذا خلوا بشياطينهم) لما في قول القائل.(إذا خلوا بشياطينهم) من التباس المعنى على سامعيه الذي هو منتف عن قوله:(وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ)(1) فهذا أحد الأقوال.

والقول الآخر:

إنّ توجيه معنى قوله:(وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ)(2) أي: إذا خلوا مع شياطينهم؛ إذ كانت حروف الصفات يعاقب بعضها بعضا؛ كما قال الله مخبرا عن عيسى بن مريم أنّه قال للحواريين (مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّه) (3) يريد مع الله .

وكما توضع [على] في موضع:[من]، و[في] و[عن] و[الباء] كما قال الشاعر:

إذا رضيت عليك بنو قشير لعمر الله أعجبني رضاها (4)

عليك، بمعنى :عنك .

1.سورة البقرة، الآية 14

2.نفس السورة والآية

3.سورة الصف،الآية:14

4.البيت للقحيف العقيلي،ينظر:شرح الأشمونى لألفية ابن مالك 90/2 وشرح ابن عقيل 365/1

وأما بعض نحوي أهل الكوفة فإنّه كان يتأول أنّ ذلك بمعنى:(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا)(1) وإذا صرفوا خلاءهم إلى شياطينهم، فيزعم أنّ الجالب لـ:[إلى] المعنى الذي دلّ عليه الكلام من انصراف المنافقين عن لقاء المؤمنين إلى شياطينهم خالين بهم لا قوله:(خَلَوْا)

وعلى هذا التأويل لا يصلح في موضع:[إلى]غيرها لتغير الكلام بدخول غيرها من الحروف مكانها.

وهذا القول عندي أولى بالصواب ؛ لأنّ كلّ حرف من حروف المعاني وجها هو به أولى من غيره.فلا يصلح تحويل ذلك عنه إلى غيره إلاّ بحجة يجب التسليم لها ولـ[إلى] في كلّ موضع دخلت من الكلام حكم وغير جائز سلبها معانيها في أماكنها ." (2)

وهكذا بعد عرض الآراء المتعارضة بأمانة وصدق،ومناقشة كلّ رأي على حدّة،يفضّل الطبري . رحمه الله . رأي أهل الكوفة ؛ لأنّه أقرب إلى الصّواب حيث تضمّن الفعل (خلا)

معنى انصرف، فحسن إبدال حروف المعاني لفائدة بلاغية ليدلّ الفعل على الفعل المضمر، والفعل الملفوظ به معا .

وهذا الرأي هو الرأي الوجيه والراجح وهو الذي اختاره الإمام الطبري،وهو أولى بالصواب.

أماّ الزمخشري فذهب إلى أنّ الفعل (خلا) يتعدى بنفسه مثل: خلا شبابك :أي: مضى.

ويتعدى بحروف الجر التي هي:[من،وعن، والباء، وإلى، ومع، واللام، وعلى،] وقد مثّل بما يلي:"خلا من أهله، وعن أهله،وخلوت بفلان وإليه،ومعه خلوة، وخلا بنفسه :انفرد .

وخلا لك الجو: وخلوت على اللبن، وعلى اللحم، إذا أكلته وحده ليس معه غيره من تمر أو خبز.(3)

وقد يكون الفعل (خلا) من المجاز فمن أمثلته ما يلي:

1.سورة البقرة،الآية14

2. الطبري،جامع البيان 101/1

3. أساس البلاغة للزمخشري،119

ومن المجاز :وخلا به :سخر منه وخدعه لأنّ الساخر،والخادع يخلوان به يريانه النصح والخصوصية.

وعليه فالفعل (خلا) بمعنى :انفرد فهو في الحقيقة فعل لازم .

ويعدى بالباء وباللام ومن ومع بلا تضمين .

ويعدى بالحرف [إلى] على تضمين معنى: آب أو خلص.

ويعدى بنفسه على تضمين: تجاوز ومنه شاع من قولهم (افعل كذا وخلاك ذم) (1)

ومن خلال عرض هذا النصوص القيمة تبيّن لنا جليا أنّ المفسرين وعلى رأسهم العلامة "الطبري" قد تعرّضوا للتضمين وأجادوا فيه ومهدوا الطريق لمن أتى من بعدهم،كاشفين عن أهمية معاني بعض الحروف ودورها في توضيح المعاني والأغراض البلاغية، وتوقف دلالات النظم وأسراره على إدراك مرامي تعاور الحروف واستجلاء بعض معانيها وهذا لفهم كتاب الله عزّ وجلّ الذي اشتمل على هذه الأسرار الربانية.

بالإضافة إلى هذا يبدو أنّ أغلبية المفسرين واللغويين استفادوا من الطرح الذي طرحه العلامة"الطبري"وراحوا يرددون وجهة نظره في اختيار مدرسة الكوفة في هذه الآية.

وقد أشار "الزّمخشري"إلى التضمين فقال:"ومن شأنهم أن يضمّنوا الفعل معنى فعل آخر فيجروه مجراه، ويستعملوه استعماله مع إرادة معنى المتضمن، قال والغرض في التضمين إعطاء مجموع معنيين، وذلك أقوى من إعطاء معنى، ألا ترى كيف رجع معنى قول الله تعالى:(وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ)(2) إلى قولك :ولا تقتحم عيناك مجاوزتين إلى غيرهم، وكذلك قوله تعالى:(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ) (3) أي:لا تضموها إليها آكلين .(4)

1.أساس البلاغة للزمخشري،119

2.سورة الكهف،الآية:28

3.سورة النساء،الآية:2

4.الزّمخشري،الكشّاف 481/2

والمتفحّص لهذه الأمثلة يدرك جيدا أنّ "الزّمخشري "من أولئك الذين يزكون "التضمين؛ لأنّه باب من أبواب المجاز، حيث يتضمّن الفعل معنيين مختلفين.

فالزمخشري" تنبه إلى أهمية هذا الأسلوب، ونفى أن يكون حلول حروف التعدية بعضها محلّ بعض من باب الخطأ، أو من باب الترادف والتساوي بينهما،وحاول أن يكشف من لطيف المعاني معتبرا ذلك سرا من أسرار الإعجاز، ودليلا من أدلته البيانية.

ولعلّ عمل الزمخشري هذا دفع بعض العلماء للبحث أكثر في الموضوع، فحاولنا أن نقف مع علم من أعلام العصر الحديث الذي له يد بيضاء في هذا المضمار،إذ تعرّض لبعض الآيات مبينا دلالة بعض الحروف . ومن القضايا التي أثارها ابن عاشور في تفسيره، أثناء حديثه عن قول الله عزّ وجلّ:(وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ) (1) وحرف [على] يدلّ على تضمين (اصبروا) معنى: (اعكفوا) و(اثبتوا) فحرف [على] هنا للاستعلاء المجازي وهو التمكن مثل: (أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ) (2) وليس هو حرف [على] المتعارف تعدية فعل الصبر به في نحو قوله تعالى: (اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ) (3) فإنّ ذلك بمعنى:[مع] ولذلك يخلفه [اللام] في مثل ذلك الموقع نحو قوله تعالى: (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ) (4) ولا بدّ هنا من تقدير مضاف أي على عبادة آلهتكم فلا يتعدى إلى مفعول إذا كان مجازا فهو في الشروع فقد أريد به الشروع في الكلام. (5)

والمتتبع لكلام الشيخ يلاحظ أنّ الشيخ كان دقيقا في تضمين الفعل "اصبروا معنى: (اعكفوا) ؛ لأن من معاني الصبر في اللغة العربية :الحبس.

والفعل:(عكف) يتضمّن معنى الحبس.

1. .سورة ص، الآية 8
2. سورة البقرة،الآية: 5
3. سورة ص، الآية:17
4. سورة القلم،الآية:48
5. التحرير والتنوير 112/23

ومن هذا القبيل قول الله عزّ وجلّ:(وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ) (1) حيث علّق الشيخ ابن عاشور على هذه الآية قائلا:"وحرف الاستعلاء للدلالة على تمكن الطمس وإلاّ فإنّ (طمس) يتعدى بنفسه." وفعل الإظهار إذا عدي بـ:[على] تضمن معنى النصر، أو التفضيل.

وهكذا أدرك الشيخ ابن عاشور في تفسيره بعض أسرار معاني التضمين،حيث أفاد حرف:[على] معنى بلاغيا فيه من الإيضاح في الجملة ما لا يخفى على أصحاب البيان. وحرف الاستعلاء هنا له إشعاعه البلاغي بحيث عمّ الطمس على الجميع. وهذا للإشارة إلى القهر والغلبة، وأنّهم أخذوا أخذ عزيز مقتدر. كما لا يمكن الاستغناء هنا عن هذا الحرف رغم أنّ الفعل يتعدى بنفسه.

ويمكن القول:إنّ الشيخ "ابن عاشور" لازم قراءة الكشّاف فأتاحت له هذه الدراسة فهما عميقا للخوض في معاني الحروف التي ساقها في تفسيره كاشفا عن معان خفية للتضمين الذي هو سر من أسرار التنزيل.فأوّل مجال للتضمين،هو:حروف المعاني،أو حروف الصفات على حدّ تعبير ابن قتيبة والطبري كما رأينا.

ومن خلال الشواهد التي قدّمناها نرى:" أنّ النحويين وعلماء اللغة في حيرة واضطراب،فهم يرون حرفا قد استعمل في مكان آخر،ولا بدّ أن يتخلصوا من هذه الحيرة،وهذا الاضطراب بوسيلة من من وسائلهم الخاصة بهم. (2)

والتضمين : حين يقع الحرف في غير مكانه مما يتطلب الدقة في الوقوع على سر تسلسله إلى هذا الوضع واستراق السمع للوصول إلى ما يهمس به من ثواني المعاني"(3) ولا يعدو أن يكون محاولة لإيجاد وجه يصح معه وقوع الحرف المعهود في مكانه.

1. سورة يسن،الآية: 26
2. فقه اللغة المقارن 212
3. من أسرار حروف الجر 27

" والصحيح عندهم أن التضمين قياسي؛ والأخذ بهذا الرأي يفيد اللغة تيسيرًا وإتساعًا.

وله شروط ثلاثة.

الأول: تحقق المناسبة بين الفعلين.

الثاني: وجود قرينة تدل على ملاحظة الفعل الآخر، ويؤمن معها اللبس.

الثالث: ملاءمة التضمين للذوق البلاغي العربي" (1)

والتضمين مبحث ذو شأن في اللغة العربية، ولا يتأتى إلاّ للبلغاء العارفين بأسرار البلاغة.

وقد وجدنا الطبري أفاض القول فيه،ويعد عمله الذي قام به نواة للمفسرين واللغويين الذين جاءوا من بعده.

هذه بعض الإشارات الخفية التي أومأنا إليها،ولم نرد التعمق فيه؛ لأنّه باب واسع الأطراف فاكتفينا بهذه النماذج القيمة.

1. النحو الوافي 169/2

المصادر والهوامش: -

القرآن الكريم

1 .ابن جرير الطبري،جامع البيان تحقيق عبد الحميد عبد المنعم مدكور دار السلام مصر ط:الأولى 2005

2 .ابن جني الخصائص تحقيق محمد علي النجار دار الكتاب العربي بيروت لبنان

3 .ابن كثير تفسير القرآن لابن كثير دار الفكر لبنان د.ت

4 .ابن عاشور التنوير والتحرير الدار التونسية والمؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ط:1984/1

5 .القرطبي الجامع لأحكام القرآن مكتبة الصفا الطبعة الأولى2005

6 .العزّ بن عبد السلام مجاز القرىن نحقيق ابن الحاج طرابلس ليبيا الطبعة الأولى 1992

7 .الزمخشري،الكشاف دار الفكر لبنان د.ت

8 .الزمخشري،أساس البلاغة لبنان د.ت

9 .السامرائي فقه اللغة المقارن دار العلم للملايين الطبعة الثالثة 1983

9. محمد الأمين من أسرار حروف الجر مكتبة وهبة القاهرة ط.الأولى 1989

10 .عباس حسن النحو الوافي دار المعارف مصر الطبعة الخامسة القاهرة 1985

11 .ابن عقيل،شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : دار التراث - القاهرة، دار مصر للطباعة الطبعة العشرون 1980

12 .الأشموني،شرح الأشموني على ألفية ابن مالك دار الكتب العلمية بيروت- لبنان الطبعة: الأولى 1998م

المجن :الترس ، وزياد :هو ابن أبيه والي الكوفة يومها ولم يقتل قتلا ولكن الشاعر أراد :أماته الله